دراساتٌ أدبيّة:

صورة الآخر في التراث "الجاحظ نموذجا"

The Representation of Others in the books of Al-Jāhiẓ

Perlambangan dalam karya Al-Jahiz

ماجدة حمود*

ملخص البحث:

تعد دراسة صورة الآخر فرعا من فروع الأدب المقارن، وتهدف إلى فهم الذات والآخر الذي هو مختلف عن الأنا بالدين أو العرق أو...الخ. حين نتأمل مؤلفات الجاحظ نجدها منفتحة على الآخر، تقدم له صورة أقرب للموضوعية، وهذا نتيجة الثقافة الإسلامية التي انفتحت على الثقافات الأخرى، ورغم صراعه مع الشعوبية وجدناه يبتعد عن التعميم، وحين تحدث عن البخلاء الفرس، لم نجد صورتهم مشوّهة ومنفّرة، وقد بدا معجباً بحكمة الفرس وبلاغتهم، كما نجده متأثراً بموقف السلطة السياسية في محنة البرامكة.كذلك بدا منفتحاً على الآخر اليهودي والمسيحي، وإن كنا قد لحظنا بعض التأثر بالنسق الاجتماعي في تقديم الآخر الزنجي، لكننا وجدناه أول من أنصفهم في تراثنا، إذ ألف رسالة "فخر السودان على البيضان" فأتاح لهم فرصة التعبير عن ذواتهم؛ لهذا كله بدا لنا مثقفا إسلاميا فاعلا، رسّخ رؤية متوازنة للآخر، تقصي التعصب جانباً، وتؤسس لمجتمع تسوده قيم الإسلام السمحة؛ لهذا كان هذا الهدف ماثلا أمام ناظريه حين ألف كتبه.

الكلمات المفتاحية: صورة الآخر –الأنا–مع الشعوبية–أهل الذمة–صورة الزنج.

* أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب – جامعة دمشق

Abstract:

The study of the representation of others is an area image of others is a branch of comparative literature, aiming to understand the self and others, which is different from the ego, religion or race, etc. When we read the books of Al-jaahidh we will find them accepting ideas of others, and give them a closer picture to the objective, and this is as a result of Islamic Culture, which opens up to other cultures. Despite his struggle with populism we find him away from overgeneralization, and when he speaking about Scrooges Persians, we do not find their image distorted, offensive, and he seems to admire the wisdom Persians and their language, we find him influenced by the reaction of political power in the plight of Baraamikah. Also he was open to other Jewish and Christians, but we have observed that there is an effect by the social system in delivering the other Negro, also we found him the first scholar whom justice about them in Arab heritage, where he established "the pride of the Sudan at white men"., then he gave them the opportunity to express themselves. For all that he seemed to be an educated Muslim, having a balanced view of the other, fact-intolerance aside , and establish a society where the values of tolerance of Islam, for this was borne this goal in front of him when edited his books.

Keywords: Representation – Egoism – Racial.

Abstrak:

Perlambangan adalah salah satu cabang ilmu dalam sastera perbandingan yang bertujuan untuk memahami diri dan orang lain yang berbeza daripada ketaasuban agama, bangsa atau sebagainya. Jika kita meneliti karya-karya Al-Jahiz kita akan mendapati karyanya bersifat terbuka yang mana ia dapat memberi gambaran yang lebih dekat sesuai dengan matlamat yang ingin dicapai hasil daripada keterbukaan agama islam yang menerima perbezaan budaya-budaya lain. Walaupun Al-Jahiz menentang isu perkauman namun, kita mendapati bahawa beliau masih bersikap adil. Hal ini dapat dilihat apabila beliau menyebut tentang kebakhilan orang-orang Parsi, kita tidak menjumpai gambaran yang buruk atau sonsang tentang mereka, malah Al-Jahiz masih mengkagumi kebijaksanaan dan ketinggian bahasa orang-orang Parsi sepertimana beliau cukup terkesan dengan kuasa politik Parsi dalam menangani isu baramka. Di samping itu, karya Jahiz turut bersifat terbuka terhadap yahudi dan kristian, walaupun kita mendapati bahawa terdapat pengaruh sosial ketika menggambarkan tentang orang-orang Nigeria, akan tetapi beliau merupakan orang yang pertama yang mengangkat isu ini dengan menulis sepucuk surat tentang "Kebanggaan Orang Sudan Terhadap Kulit Putih". Maka, jelaslah bahawa

Al-Jahiz adalah seorang pemikir islam yang sebenar yang mempunyai pandangan sama rata terhadap orang lain, mengenepikan isu perkauman dan melahirkan sebuah masyarakat yang bersifat toleransi. Ia adalah merupakan matlamat utama Al-Jahiz dalam menulis buku ini.

Kata kunci: Perlambangan – Keegoaan – Perkauman – Ahli Zimmi – Gambaran Nigeria.

مقدمة:

لابد أن نشير في البداية إلى أن صراع الجاحظ مع الشعوبيين لم يعكر صفو الروح الإسلامية السمحة التي تربى عليها، إذ استطاع أن ينقل لنا، شأن كل أدب عظيم صورة حقيقة للأمة في لحظة تاريخية، متألقة حضاريا، كما نقل لنا ما تخبّئه في أعماقها، وتسكت عنه، مما قد يخدش حياءها، وبذلك عايشنا في كتبه لحظات ضعفناولحظات قوتنا.

لقد وثّق لنا الجاحظ عادات اجتماعية تضبط سلوك الفرد تجاه الآخر، ففي إحدى قصص (كتاب البخلاء) بيّن لنا أن الأخلاق التي يربى عليها الفتيان في عصره هي احترام مشاعر الناس الغرباء، وعدم إحراجهم بطرح أسئلة عليهم، فقد اختبأ في قبيلة (عبد القيس) عبد النور (كاتب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي ثار على المنصور العباسي) وكان أبناء القبيلة يتذاكرون الشعر أمامه، وحين سأله أحد الفتيان عن نسبه تلقى لطمة من والده! وقال له: **"لا أم لك! محنة كمحنة الخوارج، وتنقير كتنقير العيّابين؟ ولِمَ لا تدع ما يريبك إلى ما لا يريبك؟ فتسكت إلا عما توقن بأنه يسرّه".**[١]

يتسع هنا مفهوم الآخر ليشمل المختلف بالنسب والانتماء القبلي، مع أن العرب اهتموا بهذا الانتماء وأسسوا عليه فن الهجاء والمدح، لكن في هذا المشهد عايشنا فيه عادات اجتماعية تحكم القبيلة وتتجلى عبر ممارساتها اليومية، لذلك تغيّرت الصورة النمطية لها (تهتم بالنسب، وكل ما يؤسس لثقافة العصبية القبلية) فوجدنا الوالد يعلّم ابنه درساً في الأخلاق والتعامل مع الغرباء، وإذا نظرنا إلى المشهد بتجرد نجد هذا الابن حريصا على راحة الغريب، لا يريد أن يروي، هو وأصدقاؤه، أشعارا تؤذي مشاعر الضيف، لكن الوالد الحكيم يريد أن يعلِّم الفتى الأصول، ويربِّيه على عدم إحراجهم بأسئلة تتعلق بنسبهم، ويكتفي بالتحدث بما يدخل السعادة في قلوبهم، وبذلك يجنب المسلمين محنة النظرة الضيقة التي شاعت لدى الخوارج، إذ كانوا يكفرون المختلف عنهم في الرؤية والمذهب، فهو يربيه على تجاوز أخطاء الآخرين، ويعلمه أن الانفتاح على الآخر يكون بالابتعاد عما يثير الحساسية والقلق، وبذلك يؤسس لمشاعر الأمان والود بين البشر.

إن هذه النظرة المنفتحة على الآخر يؤسسها عادة ثقافة متنوعة تميز بها الجاحظ، ففي كتاب (البيان والتبيين) يبيّن الثقافات الشائعة في عصره، التي تشارك فيها "**العرب وفارس والهند والروم، والباقون همج أو أشباه همج...**".[٢]

لا ينطلق هنا الجاحظ من رؤية ذاتية متعصبة لـ (الأنا) التي تنفي أي وجود متميز للآخر، فتحصر الحضارة في فلكها، وإنما وجدناه يقرّ، وهو المثقف الموسوعي أن الأمم المتحضرة أربع، من بينها أمته العربية، لهذا لا يمكننا أن نراه متجنيا على الأمم الأخرى، حين يصفهم بالهمج، لأن هؤلاء لم يتركوا أثرا حضاريا ينسب لهم، ويرفع الهمجية عنهم! أما أولئك الذين تركوا حضارة عظيمة كالصينيين مثلا لكنها لم تصل إلى يد الجاحظ، هل يمكننا أن نلومه على إغفالها؟

إن الاطلاع على ثقافة الآخر يعني معرفة لغتهم، وهذا مادعانا إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ حضنا على معرفة لغة الآخر حتى لو كان عدوا "**من تعلّم لغة قوم أمن شرهم**".

بدا الجاحظ مثقفاً نموذجيا، يتقن لغة الآخر، حتى إننا وجدناه ينتبه في (كتاب البخلاء) إلى غياب بعض المفردات لديه ذات دلالة خاصة، "**ومما يدل على أن الروم أبخل الأمم، أنك لا تجد في لغتهم اسما للجود...إنما يسمي الناس ما يحتاجون إلى استعماله، ومع الاستغناء يسقط التكلف**".[٣]

يلاحظ الجاحظ غياب لفظة (الكرم) في لغة الروم، وبما أن اللغة صورة للحياة المعيشة، تستقي ألفاظها من عادات اجتماعية وممارسات يومية، فحين نفتقد معنى يستمد عادة من السلوك لابد أن نفتقد صورته اللفظية، لهذا يستنتج أن افتقاد عادة الكرم في حياة أمة يؤدي إلى افتقاد لغوي لها! فاللغة شكل وروح للقيم التي يمارسها البشر في حياتهم اليومية، وبذلك اعتمد اللهجة التعميمية التي تبدو للوهلة الأولى منافية للمنطق العقلي الذي ينتمي إليه الجاحظ المعتزلي، فقد عرفناه لا يقبل من الآراء إلا ما وافق عقله، لعل السبب في شيوع هذه اللغة التعميمية عدم تعمق الجاحظ في لغة الآخر الرومي.

صورة الفرس:

إن التعمق اللغوي، في أغلب الأحيان، لا يكون إلا نتيجة المعايشة اليومية، وهذا ما أكده لنا الجاحظ عبر تعامله مع لغة الآخر الفارسي، إذ احتك به في حياته اليومية، لهذا ابتعد عن اللغة التعميمية التي تجلت لدى بعض من هاجم الفرس، واتهمهم (بأنهم قوم غشاشون) لادعائهم بأنه لا يوجد مفردة فارسية تدل على النصيحة، فيبيّن أن "**للنصيحة عندهم أسماء مختلفة، إذا اجتمعت دلّت على ما يدل عليه الاسم الواحد في لغة العرب، فمن قضى عليهم بالغش من هذا الوجه فقد ظلم**".[٤]

يبدو لنا الجاحظ هنا، متقنا للفارسية، نتيجة معاشرته اليومية للفرس، لهذا تمكن من الرد على أولئك الذين يهاجمونهم، ويرون أنهم يفتقدون في لغتهم لفظة (النصيحة) فلا يصفهم بالجهل، كما قد يتبادر إلى الذهن عادة، بل نجده يصفهم بما هو أفظع (الظلم) أي مجافاة الحقيقة، لأنهم ينفون لشدة تعصبهم الخير، وهو فطرة إنسانية، عن الآخر الفارسي.

نلاحظ أن الجاحظ ممن يتمتعون بروح منفتحة تؤسسها الثقافة مثلما يؤسسها المنطق والبحث عن الحقيقة، لهذا لم نجده في (البيان والتبيين) ولا في غيره من الكتب ممن يتعصبون للغة العربية، رغم دفاعه عنها في وجه الشعوبية، فهو مفكر، زادته المعرفة سعة أفق وموضوعية، لهذا لم يكتفِ بتعريف العرب للبلاغة، فهو رغم خلافه الفكري في هذا الكتاب مع الشعوبية الذين ينتمون للفرس الرافضين للإسلام، نجده يفسح المجال لتعريفهم للبلاغة إلى جانب بقية الأمم التي اطلع على ثقافتها **"قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة..."**.[٥]

إن حماسته للعربية لم تعمِ بصيرته، لهذا لم يحصر البلاغة في أمته، ومثل هذا الانفتاح على الأمم الأخرى لابد أن يثري فهمه للجمال، ويغني رؤيته للبلاغة التي بدت منفتحة على عوالم عدة.

كما قدّم لنا الجاحظ في (كتاب البخلاء) ظاهرة عانى منها المجتمع الذي انتقل من البداوة إلى المدنية في العصر العباسي، فرصد لنا لحظة تاريخية تغيّرت فيها العادات والتفكير، فباتت ظاهرة البخل تعمّ أبناء المجتمع العباسي من الفرس والعرب معاً.

وقد أتاح لنا في إحدى قصص بخلائه فرصة معايشة خصوصية العلاقة بين الفرس والعرب، فوجدنا العربي من ثقيف يستدين مالا من فارسي (أبو سعيد المدائني المعروف بالبخل) فكان يتعمّد المطالبة بالدين وقت الطعام، فقال له أحد الثقفيين بأنه لو أراد التقاضي المحض لكان ذلك في المسجد، وليس في البيت وقت الغداء.

فغضب الفارسي الذي وصفه الجاحظ **بـ" أشد الناس نفسا، وأحماهم أنفا" (أي أبعدهم عن احتمال الذل)** وثار لكرامته فمزّق الصك والكتاب الذي يثبت حقه في الدين، وقال لكل من شهد المجلس: **"هذه ألف دينار كانت لي على أبي فلان، اشهدوا جميعا أني قبضت منه وانه بريء"** فاضطر الثقفي أن يبيع ثماره قبل أن تنضج، ليسرع في وفاء الدَّين، وحين جاءه بالمال رفضه، فلما كثر إلحاح الثقفي عليه، قال مشترطا عليه **"أظن الذي دعا صاحبك إلى ما قاله أنه عربي وأنا مولى، فإن جعلت شفعاءك من الموالي أخذت هذا المال، وإن لم تفعل فإني لا آخذه، فجمع الثقفي كل شعوبي بالبصرة، حتى طلبوا إليه أخذ المال.**[٦]

إننا أمام مشهد حي لعصر الجاحظ، يبرز لنا مدى التمازج الاجتماعي بين العرب والفرس، (استدانة العربي من الفارسي، ومشاركته في الطعام).

ورغم أن الفارسي (أبا سعيد) كان بخيلا إلا أنه لم يبدُ لنا في صورة منفِّرة، فقد امتلك من الصفات النبيلة ما يجعل صفة البخل باهتة أو مشكوكا فيها، إذ ليس سهلا على البخيل النموذجي الذي نعرفه اليوم أن يرفض ألف دينار ثأراً لكرامته.

بدا لنا الفارسي لدى الجاحظ ندا للعربي، يشترط عليه شرطا صعبا، لا يستطيع أي إنسان قبوله، لكن العربي الحريص على إيفاء دينه وعلى إقامة علاقة طيبة مع الفارسي ينفّذ هذا الشرط، فيترك أصدقاءه العرب، ويرجو الموالي ليشفعوا له لدى المدائني، فيأتي بهم ليلحوا عليه كي يسترد دَينه (ألف دينار).

نلمح في هذا المشهد أيضا بعض الحساسية المسكوت عنها بين العرب والفرس، نقلها لنا الجاحظ على لسان (العربي) الثقفي، حين عرّض ببخل أبي سعيد، وعلى لسان (الفارسي أبي سعيد المدائني) حين وضّح الأسباب العرقية لهذا التعريض (**إنه عربي وأنا مولى**) لذلك اشترط على المستدين ما يعلي شأن قومه، وقد قبله، ليعيد الحق إلى صاحبه، وبذلك حمت الأخلاق الرفيعة العلاقات الإنسانية بين الأنا والآخر، فلم نجد التعصب العنصري ضد الآخر ظاهرة عامة في تراثنا.

إذاً عايشنا بفضل الجاحظ الانفتاح نحو الآخر، والامتزاج به عبر تفاصيل الحياة اليومية، وعبر السمات النبيلة التي أضفاها على الفارسي والعربي معا، مما يخفف الحساسية بين الأنا والآخر، ويعزّز التواصل بينهما.

الأنا في مواجهة الآخر:

يدرك المثقف أن المعرفة لا هوية لها، وأن دوافع إبداع الجمال تكاد تكون واحدة في كل اللغات! من هنا تكمن أهمية الانفتاح المعرفي التي كانت الحضارة الإسلامية إحدى نتائجه باعتقادنا، مما أتاح لنا معايشة مثقف كالجاحظ منفتح على الثقافة قدر انفتاحه على الإنسان، لهذا استطاع أن يوثّق لنا في كتبه وجهات النظر المختلفة، سواء لمن كان في أعلى الهرم الاجتماعي (الخليفة) أم في أدناه، وقد وجدنا أحد الحرّاس يبث شكواه للجاحظ من كثرة الأغراب وقلة العرب، فعايشنا في (البيان والتبيين) النظرة الضيقة للآخر، التي هي، باعتقادنا، تصاحب الجهل، وهي تناقض نظرة المثقف كـ (الخليفة المأمون) الذي وجدناه في مشهد مدهش يحاور فيه أحد المرتدين عن الإسلام قائلاً: "**لأن أستحييك بحق أحبّ إلي من أقتلك بحق، ولأن أقبلك بالبراءة أحب إلي من أن أدفعك بالتهمة...**"، فيتمثّل روح الدين

الإسلامي الذي أسس نهجا دعا إليه المؤمنين حكاما ومحكومين **"من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا".**[٧]

انطلاقا من هذه الروح نجد الحاكم يقول للمحكوم: لئن أحييك أحب إلي من أن أقتلك! فبدا الحوار حياة تمنح للمرتد الخراساني، إذ أفسح له المجال كي يبيّن أسباب ارتداده عن الدين، ثم ردّ عليه بهدوء العالم مفنّدا تلك الأسباب.

وبعد أن حاوره يقتنع بالعودة إلى الإسلام، فنجد المأمون ينصح أصحابه قائلاً: **"فِرّوا عليه عرضه، ولا تبرّوه في يومه ريثما يعتق إسلامه، كيلا يقول عدوه أنه أسلم رغبة، ولا تنسوا بعد نصيبكم من برّه وتأنيسه ونصرته..."**.[٨]

يطالب الخليفة رجاله بأن ينتبهوا لكرامة هذا الإنسان، فيجعلها معادلا للضرورات اليومية، لكن المهم ألا يبالغوا في إكرامه، حتى لا يتهم بأنه أسلم عن رغبة لا عن اقتناع، ينتبه الحاكم إلى النواحي الإنسانية، فالمساعدة المادية يجب أن تصاحبها المساندة المعنوية.

وقد احتفت كتب التراث بهذا المشهد، إذ قدّمه أيضا ابن قتيبة في كتابه (عيون الأخبار)،[٩] فاستطعنا أن نعايش إحدى اللحظات المشرقة في تاريخنا، وقد تجلت فيها روح الثقافة الإسلامية التي تكرّس ثقافة الانفتاح والحوار وفهم الآخر المخالف، فكانت ثقافة عصر برمته، أعطى الحضارة إسلامية أبرز سماتها باعتقادنا.

صورة إيجابية:

رغم أن من أسباب تأليف كتاب "البيان والتبيين" هو الرد على الشعوبية، لكننا نفاجأ برسم صورة إيجابية للفرس، والغريب في هذه الصورة أنه جعلهم في ذروة الإبداع في مجال لغوي (فن الخطابة) يعتقد بعضهم أنه حكر على العربية، لكن الجاحظ يخبرنا قائلا: **"وقد علمنا بأن أخطب الناس الفرس، وأخطب أهل فارس، وأعذبهم كلاما...أهل مرو."**.[١٠]

لم يكتفِ بتقديم هذه الصورة، التي تبرز تفوقهم اللغوي، بل قدّم صورة أخرى تبرز تفوقهم العقلي على لسان أحد علماء العربية (أبي عمرو بن العلاء) فيمدحهم عبر قوله لأهل الكوفة: **"لكم حذلقة النبط، ولنا دهاء فارس وأحلامهم."**.[١١]

نلمح في هذا القوال صراعاً فكرياً خاضه المثقفون إثر الفتوحات الإسلامية والاطلاع على ثقافة الآخر، فعايشنا صراعا بين ثقافة الانغلاق التي يمثلها جماعة الكوفة الذين ينتمون لمهارة النبط (العرب) وثقافة الانفتاح التي يمثلها أهل البصرة، لهذا وجدنا أبا عمرو بن العلاء يتحدث معتزّاً بتعلمه من ذكاء الفرس وحكمتها.

المدهش أن الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) المعني بترسيخ لغة بليغة، نجده يستمد تعريف البلاغة من كل الأمم! كما يتعلم منها طرق الفصاحة ومداراة العي، ولم يكتفِ بالانفتاح النظري، والتركيز على آراء الآخرين وتعريفاتهم للفصاحة، بل نجده يستحضر بطريقة مشهدية صورة لإنسان (فارسي) جمع فصاحة اللغتين العربية والفارسية هو (موسى الأسواري) الذي **"كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية على وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله يفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه للفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا ندري بأي لسان هو أبين، واللغتان إذا التقتا بلسان الواحد أدخلت كل واحد منهما الضيم على صاحبتها، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الإسواري".**[١٢]

إننا أمام مشهد نادر يوثّق لانفتاح الحضارة الإسلامية في العصر العباسي، فمجلس العلم يجمع العرب والفرس معاً، مما يتطلب معلماً متميزاً، يتقن لغتهما، ويستطيع إيصال تفسير القرآن الكريم وتعاليمه لكليهما، المدهش هنا أن (الإسواري) حاز على ميزة نادرة هي الفصاحة في اللغتين معاً، لغته الأصلية (الفارسية) ولغة الثقافة (العربية).

وبذلك قدّم لنا الجاحظ دليلاً ملموساً على أن الفصاحة غير مقتصرة على العرب، فالفارسي (الإسواري) هنا يعدّ إنساناً استثنائياً، يتجاوز المألوف، إذ لم يؤدِ إتقانه لغة أخرى إلى إضعاف لغته الأم، كما لم يؤدِ إتقان لغته الأم إلى إضعاف لغة الثقافة، فتساوت فصاحتهما لديه، وهذا دليل على ما تميز به من ذكاء وعقل.

لعل ارتداء الفرس لثوب الحكمة هي إحدى الصور الأكثر رسوخا في كتب التراث العربي، فقد كثر الاستشهاد فيها بأقوال حكمائهم، مما يعني شيوع العقل بينهم وسعة الأفق والمعرفة، فمثلا ذكر الجاحظ المعني بالبلاغة والفصاحة في كتابه (البيان والتبيين) أسئلة وُجهت إلى بزرجمهر الفارسي، تنير الطرق لمن يفتقد الفصاحة **"أي شيء أستر للعي؟ قال عقل يجمّله، قالوا: فإن لم يكن عقل؟ قال: فمال يستره، قالوا: فإن لم يكن له مال؟ قال: فإخوان يعبرون عنه، قالوا: فإن لم يكن له إخوان...؟ قال: فيكون ذا صمت، قالوا: فإن لم يكن ذا صمت؟ قال: فموت خير له من أن يكون ذا حياة".**[١٣]

تبدو لنا الحضارة رديفا للفصاحة، ومبعثاً للفخر، وبات افتقادها أمراً معيباً، لهذا انشغل الإنسان في الماضي بستر رذيلة العي، فاستنجد بالحكماء من أمثال (بزرجمهر) كي يتلمس طريقها.

نلاحظ احتفاء الجاحظ بأقوال هذا الحكيم الفارسي الذي ظهر قبل الإسلام، مثل غيره من المؤلفين المسلمين، فـ **"الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها"** على حد قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.[١٤]

الصورة السلبية:

لاشك أن الصراع السياسي الذي دار بين الحكام العباسيين والفرس (البرامكة) أسهم في توتر العلاقة بينهما، وقد عايشنا في (البيان والتبيين) هذه الأزمة مع الآخر (الفارسي) عبر أبيات شعرية، أسهمت في رسم صورة سلبية للبرامكة، فبدت لنا مناقضة للصورة التي وجدناها لهم في (ألف ليلة وليلة) ربما بسبب القرب الزمني من الحدث التاريخي، وتأثره بوجهة النظر الرسمية للحاكم، في حين بدت الليالي أكثر تحررا من قيود هذه النظرة بسبب بعدها الزمني، وإفساحها المجال لانطلاق المخيال الشعبي، الذي عبّر عن تعاطفه مع البرامكة في محنتهم مع السلطة العباسية.

رغم ذلك لا نستطيع أن ندعي بأن الجاحظ قد فارق ما عرفناه عنه من موضوعية، لهذا أثبت أبياتا في هجائهم وأخرى في مدحهم، وإن كانت أغلب الأبيات في مجال الهجاء، نظرا إلى أن الشعراء المدّاحين يسرعون إلى تبني وجهة نظر صاحب السلطة الذي يرميهم بأكياس النقود.

لو تأملنا قيم الهجاء التي رسمت معالم الصورة المشوهة، لوجدناها تخرج البرامكة من نسق المجتمع الإسلامي الوليد الذي يعتزّ بالإيمان بالله، ويجعلها قيمة عليا في حياته، لهذا كان أبلغ هجاء لهم هو تجريدهم من تلك القيمة، يقول أحد الشعراء:

إذا ذُكر الشّرك في مجلس أنارت وجوه بني برمك

وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك[١٥]

يصيب الشاعر البرامكة، هنا، في مقتل، إذ ينال من عقيدتهم الإسلامية، ويعلن انتماءهم للكفر، ليس بألسنتهم التي قد تعرف الكذب ويعتريها الشك، بل بتعبير وجوههم، إذ تشرق ملامحهم فرحا حين يأتي ذكر الكفر في أحد المجالس.

وكي تزداد صورتهم تشوّها نجد الشاعر يبرز إصرارهم على الكفر، والسير على خطا نبيهم مزدك تاركين هدي الإسلام.

لكن الجاحظ لم يكن من أولئك الذين يسقطون في الهوة التي يتردى بها شعراء البلاط، فيجاملون السلطة على حساب الحقيقة، لهذا لمسنا لديه رؤية منصفة تعتمد ميراث المعتزلة العقلاني، ولم يستسلم لتلك الصورة السلبية التي نُسجت حول البرامكة إرضاء للسلطة، فذكر أبياتا لشعراء مدحوهم، كقول مسلم (في مدح يحيى البرمكي، وكان يومئذ شابا):

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خالِ
وإذا رأى لك موعدا كان الفعال مع المقال[١٦]

هنا تعود للبرامكة الصورة التي شكلها المخيال الشعبي لهم، فألحق الشاعر بهم كل الصفات الحميدة التي تجمعها كلمة (مروءة) بل نجده يؤكد كرمهم وإيفائهم الوعد، فيسلط الضوء على صفة لا يملكها إلا أفضل الناس أخلاقا ودينا هي اقتران القول بالفعل.

الصراع مع الشعوبية:

قدّم لنا كتاب (البيان والتبيين) مشاهد للصراع بين العرب والشعوبية في العصر العباسي، فعايشنا سوء التفاهم بين قوميتين مختلفتين (عرقيا ودينيا) تحاول كل منها النيل من الأخرى، وقد لاحظنا أن الصراع لم يرتدِ ثوبا عرقيا، وإنما بدا دينيا في ظاهره وسياسيا في باطنه، إذ هو تجسيد لنظرة استعلائية شعوبية، إذ كيف يحكم الفرس، وهم أبناء حضارة عريقة، هؤلاء البداة، الذين يحملون العصي في حِلّهم وترحالهم، في المقابل اعتزّ العرب بالإسلام وأخذوا على الشعوبيين ابتعادهم عن جادة الإيمان.

وثّق لنا المؤلف مظاهر هذا الصراع، وكيف أن الشعوبية نالت من بعض عادات العرب (كاستعانتهم بالعصا أثناء إلقاء الخطبة) وقد استطاع الجاحظ، بما عُرف عنه من رحابة صدر، أن يتيح الفرصة للآخر المخالف لتقديم وجهة نظره، فنسمعه يقول: **"فهذه الفرس ووسائلها وخطبها وألفاظها وحكمها، وهذه كتبها في المنطق ... بها نعرف السقم من الصحة...هذه كتب الهند في حكمها وأسرارها وسيرها وعللها...فكيف يسقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني وتخيّر الألفاظ، وتميّز الأمور، أن يشيروا بالقنا والقضبان والعصي؟ كلا ولكنكم كنتم رعاة بين الإبل والغنم، فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في الوبر، وحملتموها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب، ولطول اعتيادكم مخاطبة الإبل جفا كلامكم وغلظت مخارج أصواتكم، حتى كأنكم تخاطبون الصمّان إذا كلّمتم الجلساء!؟".**[١٧]

نسمع هنا صوت الآخر الذي يختلف معه الجاحظ، لكنه يتيح له فرصة التعبير بحرية عن أفكاره التي يؤمن بصوابها، رغم أنها تجعل العرب شاذين عن بقية الأمم في عادة حمل العصا أثناء إلقاء الخطب.

وبذلك يثبت المؤلف على لسان الشعوبيين أعداء أمته أوصافا تحقّرها (العرب جفاة، غير متحضرين...) يعتمدون العصا التي هي أحد رموز عاداتهم الهمجية، إذ كانت رفيقتهم والإبل في الصحراء، فتركت مثل هذه الصحبة أثرا ليس فقط في تقاليد الخطابة بل في بنية لغتهم العربية، إذ هاجموها متهمين إياها بالقسوة، وبكونها ذات إيقاع عنيف، إلى درجة أن المرء لا يميز بين لغة الحديث في المجالس لديهم والصراخ الذي يصم الأذن، فتنتقل اللغة من وظيفتها التواصلية إلى ما يشبه التصادمية.

ينال الشعوبيون من اللغة العربية التي هي موطن اعتزاز العرب، لكونها لغة القرآن الكريم، حتى رُفعت إلى مستوى القداسة، ومع ذلك لا نجد الجاحظ مستفزّا في الردّ عليهم، بل يواجههم بلغة علمية هادئة، ويفضح جهلهم، فالأمم الأخرى (عدا العرب والفرس) التي ذكروها لم تشتهر بالخطابة، فالهند عُرف لها معان مدونة وكتب مجلدة، وأما اليونان فقد اشتهروا بالفلسفة وصناعة المنطق، حتى إن (صاحب المنطق) لم يوصف بالبيان، ولم نجده ينكر وجود خطباء بين الفرس، لكنه يحدد الفارق الأساسي بينهم وبين العرب "**أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول التفكر ودراسة الكتب...وكل شيء للعرب فإنما هو عن بديهة وارتجال وكأنه إلهام...**".[١٨]

هنا لا ينكر مزية الآخر الذي يعتمد الفكر والتروي في خطبه، ولا يغمط قومه حقهم، فهم يعتمدون أمرا مهما في كتابة النص الأدبي، هو السليقة والإلهام، بل يحس المرء أنه ساوى بين الفرس والعرب، فوضعهما في كفة واحدة، فالإبداع الأدبي يحتاج إلى العقل والسليقة معا، إذ لا غنى لأحدهما عن الآخر.

نلاحظ أن الجاحظ يعتمد اللهجة الموضوعية حين يتحدث عن الفرس بشكل عام، لكن لهجته تزداد حدة حين تحدث عن الشعوبيين، خاصةً بعد أن لاحظ إصرارهم على الخطأ، وعدم إصغائهم لصوت المنطق، لهذا دعا المتلقي إلى تأمل أقواله: "**تفهّم عني، فهّمك الله، ما أنا قائل في هذا، واعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقل غنما، من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم...ولو عرفوا أخلاق كل ملة، وزي كل لغة، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم...لأراحوا أنفسهم ولخفّت مؤونتهم على من خالطهم**".[١٩]

نظفر هنا بتحليل نفسي اجتماعي لظاهرة الشعوبية التي استفحلت في عصره، فقد سلط الضوء على جملة من الصفات التي جعلت الشعوبيين في أدنى السلم الاجتماعي، وأضاف إليهم أنهم كانوا أشد الناس كفرا، إذ يعتدون على الدين، وينتهكون حرماته، وعلى هذا الأساس يبدو لنا أن المكانة الاجتماعية زمن الجاحظ لا تنفصل عن العقيدة الدينية، فالكافر لن يحتل مكانة مرموقة في المجتمع.

كما بدا لنا الجاحظ أشبه بمحلل نفسي، يكشف أعماق الشعوبيين، ليفهم نسقهم الفكري والاجتماعي ودوافعهم النفسية، فهم أكثر الناس معاناة وفقرا، تعتلّ نفوسهم لأنهم يقتاتون الحسد، ينبض الحقد في قلوبهم، فيعيشون كارهين للآخر، تسيطر عليهم نزعة تدميره، لهذا باتوا مكروهين ينفر الناس منهم لسوء معشرهم.

وقد رأى الجاحظ أن سبب فشلهم الاجتماعي وتوتر علاقتهم بالآخر يكمن في كونهم يعيشون في قوالب جامدة، لا تتيح لهم فهم حقيقة النفس البشرية، إذ لا يعرفون أنها ابنة بيئتها وموروثها الثقافي، وأن لغتها انعكاس لها، فهي خلاصة حياتها، وموطن أفكارها وعاداتها.

يعرّي الجاحظ، هنا، الذات الشعوبية، فلا يكتفي بالإشارة إلى جهلها، بل يبرز كيف أساء الحقد إليها، وشوّه سريرتها، وباتت تدور حول ذاتها، لهذا عجزت عن إقامة علاقة ود مع الآخر، فغمرها الهم والقلق والحقد لكونها محصورة في دائرة مغلقة بعيدة عن التواصل الإنساني، فبادلها الناس الكراهية، ونفروا من عشرتها مثلما تنفر من عشرتهم.

نلاحظ، هنا، أنه لم يكتفِ بالحوار مع الشعوبية، بل أمعن في تحليل نوازعهم، وكشف أحقادهم التي أساءت لهم قدر ما أساءت إلى علاقتهم بالآخر! فتشويه الذات يؤدي إلى تشويه الآخر.

وقد توقف الجاحظ عند مظهر من مظاهر الخلاف معهم (العصا) فناقشه، ولجأ إلى إقناعهم بوجهة نظره عن طريق المنطق، لهذا بدأ بذكر محاسن العصا، وما قدمته للإنسان من خدمات، وكي يكسب حجته قوة لدى المتلقي، نجده يعزّزها بالموروث الديني، فيبرز أثر العصا في حياة الأنبياء كافة، فاعتمد على ما جاء في القرآن الكريم من آيات تذكر فيها، ولم يتردد الجاحظ أثناء دفاعه عن أهمية العصا في حياة العرب من ربطها بالسياق الديني، فأبرز أن دوافعه هي الرد على الشعوبية التي **طعنت في جملة هذا المذهب على عصا النبي (صلى الله عليه وسلم)**.

ونظرا لأهمية الشعر ودوره الإعلامي في ذلك العصر، نجد الجاحظ يستنجد في ردّه على الشعوبية بالموروث الشعري، فيذكر ما ورد من منافعها على ألسنة الشعراء.

إن تأمل ظاهرة الصراع بين العرب والشعوبية التي وثّق لها كتاب (البيان والتبيين) يفضي بنا إلى لبّ المشكلة، وهي أن التعصب للذات واحتقار الآخر يفضي إلى انتشار لغة التعصب، ونفي أي حوار بين الـ(أنا) والآخر، لهذا لمسنا لدى الجاحظ ردّ فعل يتعصب للذات معلياً شأن اللغة العربية التي تشكل أساس هويتها وفخرها، فـ"**إن العرب أنطق، وأن لغتها أوسع، وأن لفظها أدل، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر، والأمثال التي ضربت أجود وأسير**".[٢٠]

يتمّ، هنا، الدفاع عن الثقافة العربية عن طريق إحاطتها بدلالات تفضيلية، فيصف اللغة العربية بأنها (أوسع، أدل، أجود، أسير...).

لا تكتفي هذه اللغة المطلقة بتعميم محاسن العربية على غيرها من اللغات، بل نجد الجاحظ يعلي شأن العرب الناطقين بها أيضا، فيجعلهم (أفصح الأمم) وبذلك يبلغ التعصب العربي لذاته ولغته أقصى مدى، من هنا يمكننا أن نعدّ مثل هذه اللغة المستعلية المنغلقة على ذاتها هي رد فعل على لغة الآخر التي دمغها الاستعلاء والتعصب.

وهكذا ردّ الجاحظ على الشعوبيين في كتاب (البيان والتبيين) بلغة موضوعية تارة، ولغة مستعلية تارة أخرى، فظفرنا بوثيقة تاريخية لإحدى أزمات الثقافة العربية مع الآخر في تراثنا.

وقد جنّد الجاحظ في ردّه على الشعوبية ثقافته الشعرية والنثرية، ليثبت عبرها فصاحة العرب وتميزهم سواء أكانوا أبناء الحضر أم البدو.

صورة أهل الذمة:

شاعت الدلالة السلبية لمصطلح أهل الذمة اليوم، مع أننا لمسنا الدلالة الإيجابية في معظم كتب التراث الإسلامي، ففي (البيان والتبيين) نجد قولا للخليفة أبي بكر (رضي الله عنه) يوصي به عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): **"أوصيك أن لا ترخّص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة".**[٢١]

يكتسب فعل (أوصيك) في الثقافة الإسلامية دلالة تكاد تكون قدسية، فهي الرغبة الأخيرة للميت في هذه الدنيا، لم تأتِ هنا الوصية من إنسان عادي، بل من الخليفة الذي يجسد أعلى سلطة سياسية ودينية لدى المسلمين، فنجده يوصي من سيخلفه برعاية المسيحيين واليهود الذين هم في ذمة المسلمين، وهو يرغب في حمايتهم من الأذى من الناس كافة حكاما ومحكومين.

كما أطلعتنا كتب التراث على معالم الحياة الاجتماعية وتفاصيل العلاقات الإنسانية بين المسلمين وأهل الذمة التي سادت فيها روح المودة، حتى إن الجاحظ أثبت لنا مشهدا يبرز عمق العلاقة بين الأنا والآخر، إذ لم يكتفِ النصراني بتعزية جاره المسلم، بل وجدناه ينصحه بلهجة متواضعة، تعلي شأن جاره، وبذلك يمهد الطريق لتقبل النصيحة، مما يدل على عمق المودة، فيقول له: **"مثلي لا يعزي مثلك، ولكن انظر إلى ما زهد فيه الجاهل فارغب فيه".**

وحين أراد الجاحظ في (البيان والتبيين) الدفاع عن فصاحة العرب أتى بشواهد شعرية للمسلمين والنصارى واليهود، فيترك انطباعا لدى المتلقي بأن كلاً من المسلم والذمي ينطلقان من منظومة قيم واحدة، هي القيم العربية الأصيلة، لهذا لن نستغرب أنها شكلت محور إبداعهم، فعلى سبيل المثال يورد الجاحظ أبياتا محددا انتماءها **لبعض اليهود:**

وإني لأستبقي إذا العسر مسني بشاشة وجهي حين تبلى المنافع
مخافة أن أقلى إذا جئت زائرا وترجعني نحو الرجال المطامع[٢٢]

ثمة قيم إنسانية توحد بين الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، فالكرامة الإنسانية حاجة تستوطن أعماق البشر جميعا، لهذا كانت مثار اعتزاز الإنسان أياً كان، والشاعر بصفته رائداً من رواد

مجتمعه، يحافظ عليها، كي يعزز وجودها فيمن حوله، كما يعلي شأنه بينهم، لهذا بيّن كيف يعلي فضيلة الصبر على البؤس، وفضيلة القناعة، وبذلك يحمي روحه من ذل السؤال.

إن التزام أهل الذمة بالقيم السائدة سواء أكانت أخلاقية أم اجتماعية أمر طبيعي، فهم بذلك يلتزمون بما يرقى بأرواحهم، أي بالكرامة الإنسانية.

لقد أسهم أهل الذمة في المشاركة في الحضارة الإسلامية! مثلما أسهم أنبياؤهم وحكماؤهم، فقد شكلوا مثلا أعلى يعيش في وجدان المسلمين، فمثلا احتل المسيح مكانة سامية في التراث الإسلامي، ففي كتاب (البيان والتبيين) قدّم الجاحظ لأقواله بصيغة تنبئ عن مكانته المتميزة التي تصل إلى مستوى نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم: **"قيل للمسيح بن مريم عليه السلام : من نجالس؟ قال: من يزيد في علمكم منطقه، وتذكركم الله رؤيته، ويرغبكم في الآخرة عمله، ومرّ المسيح بقوم يبكون قالوا: يخافون ذنوبهم قال: اتركوها يغفر لكم".**[٢٣]

تلتقي هذه الحكم التي ينطق بها المسيح (عليه السلام) بتعاليم الإسلام، إذ تحض على الإيمان والعلم، والعمل من أجل يوم الحساب، وترك الذنوب للظفر بمغفرة الله تعالى.

وقد أخضع الجاحظ بعض ما وصله على لسان السيد المسيح (عليه السلام) للرؤية النقدية، لهذا وجدناه يحلل لغة النص حين يراوده الشك فيه، فيشير إلى ضعفه أو أنه **منسوب** إليه، دون أن يدفعه ذلك لترك صيغة التبجيل التي يحيط بالمسيح (عليه السلام) فقد لحظناه دائم التقديم للشاهد بصيغة التبجيل ذاتها التي يقدّم بها لرسول المسلمين (صلى الله عليه وسلم)، لذلك يجمعهما في صيغة تقديسية واحدة **"قال عيسى ابن مريم صلوات الله على نبينا وعليه: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا ما خشوا أن يميت قلوبهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم".**[٢٤]

يعزّز الشاهد هنا صورة المسيح الزاهد التي لحظناها قبل قليل، لكننا نجد الجاحظ يمارس وعيه النقدي، فيعلن شكه في نسبة هذا القول للمسيح، لعل السبب في ذلك أنه لاحظ أنه ينطق بلغة القرآن الكريم **"لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"**،[٢٥] مما يعني أن أحداً قد قوّله ذلك، لعله يكون أحد الزهاد الذين رغبوا في منح مواعظهم قوة في التأثير، لهذا رأى أن ينسبها لأحد الرسل الذين عرفوا بالزهد في الدنيا، خاصة أن لغة هذه المواعظ عامة لا تفرق بين مسلم ومسيحي.

وقد أورد الجاحظ في مكان آخر حديثا للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، يستشهد أثناءه بحكمة المسيح (عليه السلام) فيقول (صلى الله عليه وسلم): "... **إن عيسى بن مريم قام خطيبا في بني إسرائيل، لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا**

تكافئوا ظالما، فيبطل فضلكم، يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبيّن غيّه فاجتنبوه، وأمر اختلف فيه، فإلى الله ردّوه".[٢٦]

من المعروف أن الإسلام اعترف بالأديان السماوية الأخرى، لهذا يعدّ الاستشهاد هنا تجسيدا للتواصل مع حكمة المسيح (عليه السلام) التي تعدّ ميراثا إنسانيا يصلح لكل زمان ومكان، وهي تمتح من النبع نفسه الذي يمتح منه الإسلام (الإيمان بالله تعالى) ومن هنا لن يجد نبي الإسلام ضيرا في الأخذ بها، ونشرها بين المسلمين، فالحكمة ضالة المؤمن.

نلمس عبر هذه الحكمة التي يتوجه بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المسلمين على لسان المسيح، وحدة الخطاب الديني الإسلامي المسيحي، إذ إن وحدة المنطلق والهدف أسهم في صياغة دلالة واحدة في لغة الخطاب المسيحي والإسلامي، فالقيم العليا التي يحرص عليها الدين أيا كانت واحدة.

لم تشمل الصورة الإيجابية السيد المسيح (عليه السلام) فقط، بل شملت أيضا رجال الدين المسيحي الذين كانوا استمرارا لنهجه في الزهد! فقد وجدنا في (كتاب البخلاء) وصفا للرهبان يرسم لهم صورة متألقة تجمعهم مع العرب والأعراب"**أي بني لِمَ صفت أذهان العرب؟ لمَ صدقت أحاسيس الأعراب؟ ولمَ صحّت أبدان الرهبان، مع طول الإقامة في الصوامع، وحتى لم تعرف النقرس، ولا وجع المفاصل والأورام، إلا لقلة الرزق من الطعام، وخفة الزاد، والتبلغ اليسير".**[٢٧]

تتعزّز صورة رجل الدين الزاهد الذي هو استمرار لصورة المسيح (عليه السلام) الذي لا يشغله عن العبادة شيء من ملذات الدنيا، فهو يكتفي بالقليل من الطعام، ويسكن الأماكن البسيطة!

للوهلة الأولى يبدو الخطاب هنا دنيويا، فقد تلقى الراهب الزاهد مكافأته في الدنيا قبل الآخرة، إذ يتمتع بصحة جيدة، نتيجة ابتعاده عن الشراهة والجشع، وبذلك تترك العبادة الروحية الصحيحة بصمتها على الجسد، فالطبيعة الإنسانية واحدة سواء أكانت أعرابية أم راهبة، لهذا تلتقي فيها صحة الروح مع صحة الجسد! وهذا لن يكون إلا بالزهد في المتع.

صورة الزنج:

ثمة نظرة دونية للزنجي في بعض كتب التراث، إذ يحتل أدنى درجات السلم الاجتماعي، فهو العبد الخادم لدى بعضهم مهما كان متميزا، وقد وثّق لنا الجاحظ هذه النظرة في (البيان والتبيين) عبر مشهد مدح فيه أحد الشعراء الزنوج عبد الله بن جعفر، فأجزل له من كل صنف، **"فقيل له: أتصنع هذا بمثل هذا العبد الأسود؟ فقال: أما والله لئن كان جلده أسود، فإن ثناءه أبيض، وإن شعره لعربي، وقد استحق بما قال أكثر مما نال، وإنما أخذ عنا رواحل تنضى، وثيابا تبلى، ومالا يفنى، وأعطى مديحا يروى، وثناء يبقى".**[٢٨]

تصدمنا في هذا المشهد عنصرية استعلائية واضحة، تقيّم الإنسان على أساس عرقي (سواد البشرة) فنجد حاشية الأمير (عبد الله بن جعفر) لم تغفر للشاعر خطيئة لا ذنب له فيها، لهذا دمرت إنسانيته، بعد أن اختصرت كينونته في مظهره أي سواد لونه، فألغت تميّزه، ولم تعترف بمواهبه! فاستهجنت كرم الممدوح في مكافأته، مما يعني أنه يخرجه من مرتبة العبد الأسود، لكن موضوعية الجاحظ تبدو حين يطلعنا، عبر هذا المشهد، على وجهة نظر أخرى، يتبناها الممدوح، لم تكن معنية بتلك النظرة العنصرية الضيقة، بل تنفتح على الإبداع الشعري الذي يبيّض صفحته، وينشر ذكره، حتى لو صدر من رجل أسود.

لا نستطيع هنا أن نجزم بنزاهة موقف الممدوح، إذ لا يمكن أن ننسى الغاية النفعية التي قد تكمن وراء موقفه، وتجعله لا يتبنى وجهة نظر الحاشية، خاصة أن الشعر في تلك الأيام هو الوسيلة الإعلامية الوحيدة التي يستخدمها صاحب السلطة.

لكن من المؤكد أن لغة الشاعر الناصعة رفعت مكانته في نظر الممدوح، فتجاوز النظرة العنصرية لدى جلسائه، فقد أصبحت العربية، التي نزل بها القرآن الكريم، في وجدان العربي، إذ هي حامل دلالي لكل ما يمكن أن يفخر به، لذلك كانت ومازالت وسيلة إعلان مهمة، تطير بفضلها سجايا الإنسان بين الناس.

نجد الممدوح يتجاوز الاعتبارات العرقية السائدة بين العامة في المجتمع الإسلامي، والتي هي استمرار لما كان ينخر المجتمع الجاهلي من أفكار استعلائية (معاناة عنترة بن أبي شداد مثلا) كأن المجتمع، حتى بعد ظهور الإسلام بمدة طويلة، لم يستطع تمثل قيم الدين الجديد التي تعلي إنسانية الإنسان بغض النظر عن جنسه ولونه، فقد قال تعالى: "**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**".[٢٩]

سادت هذه النظرة الدونية للآخر الزنجي، ومازالت، في المجتمع الإسلامي، وفي مجتمعات أخرى كالشعوبيين من الفرس، الذين يقولون: "**الخطابة شيء في جميع الأمم...حتى إن الزنج...مع فرط الغباوة، ومع كلال الحدّ، وغلظ الحس، وفساد المزاج لتطيل الخطب، وتفوق في ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطأ وأجهل**".[٣٠]

وثّق لنا الجاحظ النظرة الدونية للآخر، وبيّن أنها لا تعتمد الشكل الخارجي (لون البشرة) فقط، وإنما تتناول كينونة الإنسان ومقدرته اللغوية، فتنزع عن الزنج انتماءهم البشري، حين تجردهم من العقل ورهافة الحس والفطرة السليمة، وتلصق بهم (الغباوة والغلاظة وكلال الحد، وفساد المزاج) كي تقنع المتلقي بحرمانهم من كل ما يفرزه العقل والروح، وتحرمهم مِن ثَمّ من أي إبداع لغوي، لهذا تمّ وصف لغتهم عبر أسماء التفضيل ذات الدلالة السلبية المنفرة (أجفى، أغلظ، أخطأ، أجهل).

إن الاستهانة بهذا الآخر دليل على رغبة في إعلاء شأن الذات، لهذا ألحقت بصورة لا شعورية الدلالات الإيجابية بلغة (الأنا) سواء أكانت عربية أم شعوبية! والدليل على ذلك تكرار هذا الوصف السلبي في كتاب البخلاء أيضا، مما يعني أن الجاحظ ينقل للمتلقي ما هو مألوف، دون أن يستهجن ما يسمع من وصف يحرم الزنج من الذكاء والعقل! "**وقد علمنا أن الزنج أقصر الناس مِرة وروية، وأذهلهم عن معرفة العاقبة...**".[٣١]

يرضخ الجاحظ، هنا، للنسق الاجتماعي ومقولاته المهيمنة، رغم ما عرف عنه من موضوعية، إذ يبدو أن السائد بين الناس هو تلك النظرة الدونية للآخر الزنجي، وما يؤكد على هذه النظرة أننا لاحظناها في القصص الشعبي، خاصة في (ألف ليلة وليلة)؛ فقد تم وصف الزنوج بصفات غاية في البشاعة، فقد عدّهم الخيال الشعبي من أكلة لحوم البشر، لذلك كان الناس في بغداد عند هبوط الظلام يغلقون باب بغداد "**خوفا من السودان أن يأخذوهم ويأكلوهم**".[٣٢]

غير أن كتب الجاحظ التي ترصد مظاهر الحياة الاجتماعية كـ (كتاب البخلاء) رصدت لنا العلاقة الإنسانية التي تتجاوز هذه الأوهام، وتستمد مادتها من الواقع المعيش، فقد حدثنا عمن يعاشر الزنوج في تفاصيل الحياة اليومية، ويؤاكلهم، ويتعلم منهم آداب الطعام! فيسمعنا صوت (راشد الأعور) يقول: "**لم أنتفع بأكل التمر إلا مع الزنج وأهل أصبهان، فأما الزنجي فإنه لا يتخير... وهذا عدل، والتخير قزمة وجور، لا جرم أن الذي يبقى من التمر لا ينتفع به العيال إذا كان قدام من يتخير**".[٣٣]

نعايش هنا الموضوعية في النظرة للآخر الزنجي، فينقل لنا الجاحظ على لسان من عايشه في تفاصيل الحياة اليومية صورة دقيقة عنه، تكتشف محاسنه، فتقضي على الصورة المتوهمة عنه التي تشوّهه، فهو يأكل التمر بإحساس مرهف بالعدل والمسؤولية تجاه الآخرين، لهذا لا ينتقي الجيد لنفسه ويترك الفاسد لغيره، وبذلك يبتعد في تصرفه عن "**القزمة والجور**" أي يبتعد عن دناوة النفس وأنانيتها التي تبيح ظلم الآخرين، فيجسد عبر سلوكه الرقي الأخلاقي والحس الإنساني! فيسمو الزنجي على كثير من الأجناس الأخرى، ومن بينهم العرب، وبذلك تتحرر صورته من نمطيتها، وتخرج عن تشوهها.

إذا كنا قد لحظنا الجاحظ في (البيان والتبيين) قد خضع للسياق الاجتماعي ومقولاته المهيمنة في تقديم صورة مشوّهة للزنجي، فإننا لاحظنا أنه يسهم في تحرير هذه الصورة من نمطيتها السلبية في رسالة ألفها بعنوان (فخر السودان على البيضان) فأتاح للمرة الأولى أن يُمثّل السودان أنفسهم ويصفوا ذواتهم، ويستعرضوا مفاخرهم، فقد كانوا عاجزين عن ذلك، إذ جُردوا من أهم أداة تمثّل الذات ، وهي الكتابة واللغة، على حد قول نادر كاظم.[٣٤]

تحرر الجاحظ من النسق الثقافي السائد الذي ينأى عن روح الإسلام السمحة، فأتاح للآخر الزنجي في هذه الرسالة فرصة التعبير عن صوته الخاص، والدفاع عن ذاته، فوجدناه غير مكبّل بإحساس النقص

الذي ينتاب البعض لسواد بشرتهم، فيسعون لتغيير لونها، كما فعل المغني العالمي مايكل جاكسون!! لهذا نجده يتيح الفرصة للزنجي للتعبير عن ذاته بصيغة الجمع مؤكداً إحساس الثقة بالانتماء إلى الجماعة: "**إن الله لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا، ولكن البلد فعل ذلك بنا. والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سوداً كبني سليم**".[٣٥]

يقدم لنا التراث العربي عبر الجاحظ لحظة حضارية نادرة، إذ أتيح للسود إيصال وجهة نظرهم عبر حوارهم مع الآخر الذي يعيب سوادهم، فظهر اعتزازهم بلونهم، وناقشوا أمرهم، وبيّنوا بأن ذلك ليس مسخاً أو غضباً من الله، وإنما هو أمر طبيعي نتيجة للبيئة الحارة التي يعيشون فيها! إذ إن من المعروف أن سواد البشرة أكثر مقاومة لحرارة الشمس وتأقلماً معها.

وبما أن سبب تشويه صورتهم هو الجهل، لهذا وجدوا فرصة لمواجهة النظرة المشوّهة لهم عبر المعرفة، فبيّنوا محاسن السواد "**نحن أهول في الصدور وأملأ للعيون...كما أن الليل أهول من النهار**".

إنهم يركزون على ما حباهم الله من ضخامة الأجساد وقتامة اللون، مما قد يؤثر سلبا على الآخر فيرهب جانبهم، مثلما يرهب الناس لسواده، وبذلك يستعينون بالطبيعة لتعزّيز تميّزهم، بما حبتهم من مزايا، يظنها الناس مساوئ، لهذا يعلنون على الملأ ثقتهم بأنفسهم.

ثمة رغبة لديهم في تغيير النظرة النمطية السائدة حولهم، لهذا دعوا الآخر إلى التأمل في أجسادهم، ليتعرّفوا أهمية السواد، وليلاحظوا أن أكرم ما في الإنسان هو "**حدقتاه، وهما سوداوان**" وبذلك يفخرون بما يظن بعض الناس أنه نقطة ضعف أو عقدة نقص، وبات الشكل الضخم واللون الأسود قوة تهبهم التميّز عن الآخرين والثقة بالذات.

وهم لا يفتخرون بأشكالهم التي لا يد لهم فيها فقط، بل يفتخرون بتميّزهم الثقافي الذي حصّلوه بجهدهم "**لنا بعد معرفة بالتفلسف والنظر، ولنا في الأسرار حجة...**".

وبذلك يبيّنون لنا خطأ النظرة السائدة التي تحشرهم في خانة العبيد، والتي مازالوا يعانون منها إلى اليوم، فهم ذوو نسب عريق، إذ إن أجدادهم ملوك، اعترف العرب بأهميتهم، لذلك يذكّرونهم بمكانتهم لديهم عبر خطاب مباشر لهم: "**قدّمتموهم في كثير من المواضع على ملوكم، ولو لم تروا لنا الفضل في ذلك لما فعلتم**".[٣٦]

لا يكتفي الجاحظ بإيراد مدحهم عبر صوتهم الخاص؛ لأن ذلك قد يفقدهم الصدقية، فالإنسان بطبعه ينفر من مادح نفسه، لهذا وجدناه يعزّز أقوالهم بأمثلة مستمدة من القرآن الكريم، وبيّن أن لقمان الحكيم منهم، وقد مدحه الله في كتابه، وأورد حكما له أوصى بها ابنه، ولقّبه بـ"**الحكيم**" بل سمّى سورة باسمه.

كما ذكر الجاحظ أولياءهم الصالحين السابقين إلى الإسلام، وتحدث عن المتفقهين في الدين، من أمثال سعيد بن جبير الذي قتله الحجاج، و **"كان أورع الخلق وأتقاهم، وكان أعظم أصحاب ابن عباس، ويوم قتل قال الناس "كلنا محتاج إليه".**

ثم نجده يعزّز ما ذكروه من صفات جسدية ومعرفية، ويضيف إليها مزايا أخلاقية ولغوية **"ليس في الأرض أحسن حلوقا منهم، وليس في الأرض لغة أخفّ على اللسان من لغتهم...وليس في الأرض قوم أذرب ألسنة، ولا أقل تمطيطا منهم...ليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعمّ منهم فيهما. وإن الرجل ليرفع الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم، وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء، وهذه هي خصال الشرف...والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى لا تراه أبدا إلا طيّب النفس، ضحوك السن، حسن الظن، وهذا هو الشرف".**[٣٧]

إن الجاحظ عالم بالنفس البشرية، يدرك اتساع قدراتها، لا يمكن أن تسجن في لون معين أو انتماء ما! لهذا مدح المقدرة اللغوية لدى الزنجي، ولم يجعل صفة كـ(الفصاحة) عُرف العرب بها حكراً عليهم، وهو لا يكتفي بذلك بل يمدح طبيعة لغة الزنجي، وما تتميز به من خفة في النطق، وجمال في الإيقاع! كما يمدح قوته الجسدية، ويبيّن تميّزه في هذا ليس عن الفرد العربي، بل عن **"الجماعة من الأعراب"** ومثل هذه القوة ليست بمعزل عن الشجاعة والشرف، وبذلك تكتمل جماليات صورة الزنجي، التي هي استمرار لصورة عنترة بن شداد التي شكلت في المخيال العربي نموذجا رائعا للبطولة والشهامة.

من الملاحظ أن الجاحظ معجب بشخصية الزنجي، ربما لكونه ينتمي مثله إلى جماعة المهمشين، لكنه استطاع أن يحقق مكانة رفيعة في مجتمعه بفضل المعرفة التي حصّلها والإبداع الذي قدّمه، واستطاع بفضل عمق الرؤية الإنسانية وتشبعه بروح الإسلام أن يقدّر المزايا التي يتمتع بها الإنسان بغض النظر عن انتمائه ولونه، خاصة أنه لاحظ اجتماع المزايا الجسدية بالأخلاقية لدى الزنج، لهذا كرّر صفة الشرف حين وصفهم، ليرسّخ صورتهم النبيلة في الأذهان.

من هنا لن نستغرب حماسته لهم التي تبدت في تأليف رسالة خاصة بهم، وهم المهمشون المبعدون عن السلطة، على نقيض الأتراك.

وقد تجلت حماسته أيضا في الدفاع عن الزنج حين ردّ على أولئك المتعصبين الذين يحاولون النيل منهم، فقد اتهموهم بضعف العقل لكونهم أسخياء، فيقول لهم: **"ينبغي في هذا القياس أن يكون أوفر الناس عقلا وأكثر الناس علما أبخل الناس ... وأقلهم خيرا".**[٣٨]

كان دفاع الجاحظ عنهم في هذه الرسالة التي كتبها عنهم نثرا وشعرا، فقد أثبت أبياتا في الفخر لبعض شعرائهم، وبذلك عايشنا بفضله مشهدا من مشاهد الحضارة الإسلامية التي منحت الآخر فرصة

التعبير عن ذاته والفخر بها، فلكل إنسان **"نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوئ"**.[٣٩]

لقد تعمّد الجاحظ في مؤلفاته، وهو المثقف الطليعي، أن يسهم في ترسيخ رؤية موضوعية للذات وللآخر، تقصي التعصب جانبا، وتؤسس لمجتمع تسوده المحبة والتسامح، وهذا ما صرّح به في مقدمة رسائله **"وكتابنا هذا إنما تكلّفناه لنؤلف بين** (قلوب البشر) **التي كانت مختلفة، ولنزيد الألفة إن كانت مؤتلفة، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم، ولتسلم صدورهم"**.[٤٠]

الخاتمة:

هنا نتساءل: أين هم أمثال الجاحظ اليوم الذين يؤلفون بين القلوب المختلفة؟ فيعيشون روح الإسلام، ويجسدون قيمه.

هوامش البحث:

[١] انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البخلاء**، تحقيق: أحمد العوامري وعلي الجارم، (بيروت: منشورات دار الكتب العلمية، د.ت)، ص١٦٠.

[٢] انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: فوزي عطوي، (بيروت: مكتبة الطلاب، د.ت)، ص٨٧.

[٣] انظر: الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر، **البخلاء**،ج٢، ص١٥٣.

[٤] انظر: السابق نفسه، ج٢، ص١٥٣.

[٥] انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، ص٦١.

[٦] انظر: الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر، **البخلاء**،ج٢، ص٧١-٧٢.

[٧] سورة المائدة ، آية ٣٢.

[٨] انظر: الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر، **البخلاء**،ج٢، ص٥٥٨-٥٥٩.

[٩] انظر: ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، **عيون الأخبار**، (بيروت:دار الكتاب العربي، د.ت)، ج٢، ص١٥٤.

[١٠] انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، ص٣٩٨.

[١١] انظر: السابق نفسه، ص٢٢٦.

[١٢] انظر: السابقنفسه،ص١٩٣.

[١٣] انظر: السابقنفسه،ص١٩.

[١٤] بعضهم ينسب هذه الحكمة للرسول (صلى الله عليه وسلم).

[١٥] انظر: السابقنفسه،ص٥٤٧.

[١٦] انظر: السابق نفسه، ص٥٤٩.

[١٧] انظر: السابق نفسه، ص٣٩٨.

[١٨] انظر: السابق نفسه، ص٤٠٤.

[١٩] انظر: السابق نفسه، ص٤٠٦.

[٢٠] انظر: السابق نفسه، ص٢٠٠.

[٢١] انظر: السابق نفسه، ص٢٣٦.

[٢٢]انظر: السابق نفسه، ص٥٣١.

[٢٣]انظر: السابق نفسه، ص٢٠.

[٢٤]انظر: السابق نفسه، ص٤٥٥.

[٢٥]سورةآل عمران، آية ١٧٠.

[٢٦]انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر،**البيان والتبيين**، ص٢٣٠.

[٢٧] انظر: الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر، **البخلاء**،ج٢، ص٢٢.

[٢٨] انظر:الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر،**البيان والتبيين**، ص٢٦١.

[٢٩] سورة الحجرات، آية ١٣.

[٣٠] انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر،**البيان والتبيين**، ص٣٩٨.

[٣١] انظر: الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر، **البخلاء**،ج٢، ص١٠١.

[٣٢] **ألف ليلة وليلة**، (بيروت: طبعة صادر، د. ت)ج١،، ، ص١٤٨،ليلة (٣٧).

[٣٣] انظر: الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر، **البخلاء**،ج٢، ص١٥٤.

[٣٤] انظر: نادر، كاظم، **تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٤) ص٢٨٤، بتصرف.

[٣٥] انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر،ى**رسائل الجاحظ،فصول مختارة من كتب الجاحظ**، اختيار: الإمام عبيد الله بن حسان، شرحه وعلّق عليه: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م)،ج١، ص١٥٨.

[٣٦] انظر: السابق نفسه، ص١٤٠.

[٣٧] انظر: السابق نفسه، ص١٣٨-١٣٩.

[٣٨] انظر: السابق نفسه، ص١٣٩.

[٣٩] انظر: السابق نفسه، ص٣١.

[٤٠] انظر: السابق نفسه، ص٤٠.